الأخذ بالثأر

قصة

بقلم محمد نفاع

● عندما اقول ان الطاحونة والطحان شيئان عزيزان عليّ للغاية فانا لا ابالغ ، فهذا الحجر الضخم الملطخ بالطحين والذي يزن اطنانا كثيرة ، والقوس الحديدي الكبير ، والماكنة والداخون، كلها اشياء لها في نفسي ذكريات عميقة . السبب ، ليس لانها تطحن القمح ، ولا رؤية نساء الاغنياء يجمعن بقايا الدقيق عن الارض والاخشاب المعلقة لعمل خبز على شكل اقراص ضيقة تطعم للكلاب مع قطعان الماشية ،ولا رؤية الفقراء يجمعون ذلك لانفسهم .. السبب يرجع الى ما حدث قبل سنين . في ذلك اليوم لم يكن احد من أهل القرية يتوقع اشياء غير عادية ، فقد صحا الجد بعد « عيانة » قوية استمرت اسبوعا كاملا من المطر والبرد والرياح الشديدة المتواصلة ، كان يبدو ان الدنيا قد انزلت كل ما عندها من خير بسخاء حتى امتلأت البركة وتفجر النبع من الصخور ، وحبت على الارض زحافات كسولة فيها بقع صفراء نسميها عندنا « ابو دافلين » ، تلت ذلك ايام صحو مشمسة ، والبخار يتصاعد من الارض ، وحطت رفوف العصافير على نبات السويد والقاتل والعليق، والشحرور ينبش تحت اشجار الزعرور يفتش عن بقايا الثمر بين العفن. هكذا اتصور الان ما اقول ، اما عندها فكنت مغلوبا لا اقدر على المشي رغم اني في السابعة من عمري ، والغلب ليس جديدا في القرية ، فقد حدثت حوادث مماثلة ،ويعللون ذلك بان الام حملت بالجنين في ليلة وقفة او ليلة عيد . كان كل اسمي « المغلوب » . وجرب أهلي المساكين عدة وصفات لشفائي ولم تنفع .

في ذلك اليوم المشمس الدافيء خرج الناس الى الحقول لزرع القمح ، والكسالى لبسوا معاطفهم وتسكعوا في الازقة وعلى السطوح يقولون ان الارض وحل ، وحرث الوحل محل . كنت انا على سطحنا الخشبي وحولي أمي وبعض النسوة يرتقن الثياب ، عندما سمع صوت عميق من جهة الجبال البعيدة المرتفعة .. وانصت الناس وهدأت كل ضجة في القرية ، وتوقف الاولاد عن اللعب بعد ان اسكتهم المارة باشارة من ايديهم . وجاء الصوت الغريب من جديد ، وسمعت الناس يقولون : « دبة صوت » . وراح النسوة يهمسن بأن الحرامية طبوا على المعزي ، لكن الصوت المتدحرج اسكتهن :

« جاي يا غلمان جاي !! مروتكم يا شباب !! جدعان مقتول في خلة بير الشيخ » صرخت امي بضعف ووقعت مغشيا عليها . وولولت النسوة ونظرن الي . كان جدعان هو اخي الوحيد . مرت لحظة صمت ثقيل ، واصبت بحيرة وحزن وكبلني الخوف ، شعرت بثقله وقسوته اكثر من المرض ، وأمي على بعد خطوات مني ـ لو استطيع المشي ـ تشبه الاموات . ارتفع لغط الناس في البلد وفي الحقول ورد «فضول» وهو شاب جدع :

« سمعناك .. اجيناك » .. واطلقت عيارات نارية فانقطع الصوت.

ـ « بلا معارضة في حكمة الباري ! لو يقبض روح المغلوب ويخلي السليم لاهله » ، هكذا سمعت واحدة من النسوة تقول . وفهمت ما تقول . اما انا فكنت اشعر ان أبي وأمي واخي جدعان كلهم يحبونني كواحد منهم ، واحبهم بكل قدرتي .

صبوا الماء على وجه أمي فافاقت وتلفتت حولها وتركت المكان مهرولة والنساء في أثرها . وتقاطر الناس جهة الطريق الصاعد في الوعر على الخيول ومشاة ، وأبي حتما ذهب من الحقول معهم . واجتمع العجزة في الطرقات ، وصعد بعضهم على السطح ، ينظرون الي بشفقة ، شعرت بوحشة وتجسم لي المرض كاقسى ما يكون ، عندها شعرت حقا بالغلب وأنا أرى الاولاد يصعدون الهضاب والصخور بخفة وبنشاط ، انهم يمشون ، سوف يقصون علي ما رأوا هناك ، وجه أخي ، كيف .. والدم على الارض والثياب والعصا ، اما انا فكل ما اعرفه ان اخي مقتول في خلة بير الشيخ ، وتخيلت ذلك المكان رهيبا عابسا .

ـ « خلة بير الشيخ كل عمرها مربط للرجال ! » قال الشيخ على العكاز .

راح الوقت يمر متثاقلا والناس حولي يحصون من مات شابا :

ـ « تفاحة » ماتت في لدغة عقد الجوز ، ظلت على الدخانة ، « مسعود » راح يحرق في ارضه يوم شرقية لعبت النار في ثيابه واخواته معه ، صراخ وبكا وهو يركض من « حلاوة الروح » رايح جاي حتى قطع لحمه وقلب وجهه اسود مثل العطبة ، ربما أخي يكون قد ذبح مثل الغنمة ، او ضرب سكينا في خاصرته فاندلعت امعاؤه على البلان والارض ، عندها فقط ارتجفت وشعرت بحب جارف لاخي جدعان . اشتد وهج الشمس في الظهيرة ، واذا راح طير في الجو ، او حط بوم تائه على الجوزة الكبيرة العارية قلت ان ذلك له علاقة بموت اخي ، وان الكروم الجرداء ، والارض المحروثة والوعر كلها اشياء لها صوت واحد، لها صفير عميق وتتحرك ، واني اسمع بعض الكلمات سابحة في الجو ، ووراء الجبال العالية يوجد عالم مجهول موحش . ظل المكان هادئا والقرية مقفرة حتى بدأت العصافير تطير في جماعات ترتفع وتنزل صوب الوعر للمبيت والماشية تعود بكسل الى الحظائر والنهار يولي ببطء ، لم يبق منه الا نور باهت بين الزوال والمليل ، عندها سمعنا جلبة واصواتا، وتحرك شيء في جسدي ، وانا استذكر قول الناس بان القتيل والماء الجاري والراكد والقبور والنائم كلها اشياء لها وهرة في الليل .

في ساحة القرية اشعلت النار في كوم هائل من الحطب اليابس ووضع نعش أخي جدعان في الوسط ، ولما ازيح الغطاء بدا وجهه ميتا حقا ، ساد الوجوم والحزن بعض الوقت تكلم بعدها فضول :

جرح بلادي

صار المقعد جزءا مني ،
والغرفة تسبح في الظلمة ،
تتأرجح في صحراء العتمة ...
انظر حولي : لا نجمه ،
لا ضوء ... ماذا ؟ أين انا ؟
أسمع أنات الاشجار ،
لا أفهمها ، فالاشجار
ليست أشجار بلادي ،
ليس لها أسم في لغتي .
أذكر : قالوا لي : تفاح .
هذي واحدة ، كلها ...
طعم التفاح غريب في الغربة ،
أوراق الاشجار ، حفيف الاشجار ،
زقزقة العصفور ، خرير الانهار .
أسمعها ، أسمع صوت الغربة ...

صوت الغربة في أذني
وطعم الغربة تحت لساني :
مر هذا الشكر . ليل
شمس الغربة في أجفاني ...
صار المقعد جزءا مني ،
والغرفة تسبح في الظلمه ،
والاشجار تئن مع الريح ، ولكن
حتى الأنّة في الغربة أنّة غربه ...
عطشان ، وماء الغربة لا يرويني ،
أنقى من ماء بلادي ــ قالوا ــ
لكن لا يرويني ...
أسماء أحبائي ناقوس
يقرع في رأسي ، يوقظني ،
يحملني نحو بلادي ، يزرعني
في أرضي ،
يترك بعضي يبحث عن بعضي ...
جرح بلادي نار تصعد في احشائي ،
أصرخ : آه ،
اقبلني في ملكوتك يا الله .

كانتربري

اديب صعب

ــ بلدنا اصيلة واهلها طياب لا يضمرون الشر لاحد ، علاقتنا مع بلاد الجيرة مالوفة ، نعيش على كد ايدينا ، ارضنا بسهلها وجبلها غالية علينا ، جدعان قتل والقاتل مجهول وسرق الجمل والطحنة ، المطحنة بعيدة ، يمكن قطاع الطرق يعيدوها ، الحرب تركت الناس بلا اكل ، والجوع كافر ، ثار جدعان امانة في رقابنا ،لكن المشكلة تبقى ، تعالوا نبني مطحنة في البلد على اسم جدعان ، ارضنا غليلة ونقطع طريق الشر على من يضمره .

كان الناس ينصتون بشدة الى هذه الكلمات ، وهتفوا مؤيدين الراي الصواب .

ــ ابني نقوط اسامح في دمه لراي فضول والحاضرين . قال ابي وقد غص بالبكاء ، وظلت امي طريحة الفراش تهذي من الاسى .

كاد الحديث عن اخي جدعان يغيب عن السنة الناس ، لان الجميع بما فيهم والدي انهمكوا في العمل .. الحجارون يقطعون الحجارة والجمال تنقلها الى حيث يبنون الاسس والقناطر والجدران ، والنساء ينقلن المياه للعمال في الوعر ويقدن الجمال ويحضرن الرمل من الاودية والسيول ، ولان العمل يقابله ثواب ، عمل أهل القرية يوما كاملا لحساب العجزة والقصر امثالي حتى نكون قد شاركنا ، اما عم « نعومة » فقد صنع عجلات للآلات الضخمة في البلدة الكبيرة حيث شوارع الاسفلت ، وهب الجميع لاحضار المطحنة ، الرجال والدواب .

في ذلك اليوم بالضبط وعندما سمعت القرية اصوات الحداء والاهازيج واجراس الجمال وصوت الناي والارغول كلها ترافق آلات المطحنة ، كانت خالتي قد وضعتني في قفة من القش وحملتني على راسها ودارت على البيوت :

ــ اعطونا للمغلوب شي حتى يقوم يمشي !! فينهال الزبيب والتين المجفف علي ، ووصل الجمع ، وحدا الشباب فوق راسي ومدوا لي ايديهم ، وشعرت بدم حار يجري في عروقي ، وبعصبية ونخوة في راسي ارتجفت بشدة وصرخت من قحف راسي وانا اقف لاول مرة في حياتي ، وعمرت حلقة الدبكة واطلقت الزغاريد وركض الاولاد الى امي التي جاءت شاحبة تلهث تقبلني ودموع الفرح تسيل على وجهها ، وانا الى اليوم اشعر بنفسي مدينا لمطحنة أخي جدعان واتردد عليها .

حيفا (فلسطين)

محمد نفاع

« جريدة « الاتحاد »